

الستهام يشمره أنه مات ، فله في نفسه حزن الموت وهم
التكل ؛ وله في نفسه هم التكل وحزن الموت

وينظر صاحب القلب المسكين فإذا الأنوار قد انطفت
في الحديقة ، وإذا القمر أيضاً كأنما كان فيه مسرح وأخذوا
بطفن أنواره

كان وجه القمر في مثل حزن وجو العاشق للبتد عن
حييته إلى أطراف الدنيا . فكان أبيض أصفر مكدا ، تخيل
فيه معاني الدموع التي يحسها التجلد أن تتساقط

كان في وجه القمر وفي وجه صاحبنا معاً مظهر تأثير
القدر الغامض بالنسبة

وبدت لنا الحياة تحت الظلة مقفرة خاوية على أطلالها
فارغة كفراغ نصف الليل من كل ما كان مشرقاً في نصف
النهار . يالك من ساحر أنها الحب ! إذ تجعل في ليل العاشق
ونهاره ظلاماً وضوءاً ليس في الأيام والليالي

أما الحديقة فلبسها معنى الفراق ؛ وما أسرع ما ظهرت
كأنما يست كلها لتوها وساعتها ، وأنكرها النسيم فهرب منها
فهي ساكنة ؛ وتحولت روحها خشية جافة ، فلا نضرة فيها
على النفس ؛ وبدت أشجارها في الظلام قائمة في سوادها
كالنائمات يلطمن ويكولن ، وتنكر فيها مشهد الطبيعة كما يقع
داعماً حين تنبت الصلة بين المكان ونفس الكائن فيه
ماذا حدث ؟

لا شيء إلا ما حدث في النفس ؛ فقد تغيرت طريقة الفهم ،
وكان للحديقة معنى من نفسه فُلب المعنى ، وكان لها فيض
من قلبه فأنحيس عنها الفيض ، وبهذا وهذا بدت في السلب
والدم والتشكر ، فلم يبق إبداع في شيء مُبدع ، ولا جمال في
منظر جميل

أ كذا يفعل الحب حين يضع في النفس العاشقة معنى ضئيلاً
من معاني الفناء كهذا الفراق ؟

أ كذا يترك الروح إذا فقدت شيئاً محبوباً ، تتوهم كأنها
ماتت بمقدار هذا الشيء ؟

مسكين أنت أيها القلب العاشق ، مسكين أنت !

ومضينا فلنا إلى نبي تجلس فيه ، وأردت معاينة صاحبنا

٦- القلب المسكين

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما صاحب القلب المسكين فقام ليخرج ، وقد تفارطته
الهموم وتسابت إليه فأنكسر وتفتت ؛ وكأنما هو قد فارق
صاحبه باكياً وبكية من حيث لا يرى بكاءه غيرها ولا يرى
بكاءها غيره .

ورأيته ينظر إلى ما حوله كأنما تنشئ الدنيا لون نفسه
الحزينة إذ كانت نفسه ألقت ظلها على كل شيء يراه ؛ وجعل
يدلف ولا يمشي كأنه مثقل بحمل يحمله على قلبه
إنه ليس أخف وزناً من الدمع ، ولكن النفوس الثائلة
لا تحمل أثقل منه ، حتى لينثر على النفس أحياناً وكأنه وكأنها
بناء قائم يهدم على جسم . وبعض التهديدات - على رقتها
وخفتها - قد تشمر بها النفس في بعض همها كأنها جيل
من الأحزان أخذته الرجفة فادت به ، فتقلقل ، فهو يتقلقل
ويهاوى عليها

آه حين يتغير القلب فيتغير كل شيء في رأى العين .
لقد كان صاحبنا منذ قليل وكأن كل سرور في الدنيا يقول له :
أنا لك ؛ فداد الآن وما يقول لك أنا لك إلا الهم ؛ والتي
هو والظلام والعالم الصامت

جمل يدلف ولا يمشي كأنه مثقل بحمل يحمله على قلبه .
ومنى وقع الطائر من الجو مكسور الجناح انقلبت التوايس
كلها مائلة فيه ، وظهر الجو نفسه مكسوراً في عين الطائر
المسكين ، وتنفصل روحه عن السماء وأنوارها حتى لو ضميره
النور وهو ملق في التراب لأحسّه على التراب وحده
لا على جسمه

ثم خرجنا فائقه صاحبنا مما كان فيه ؛ وبهذه الانتباهة
للؤلة أدرك ما كان فيه على وجه آخر فتعذب به عذابين :
أما واحداً فلاه كان ولم يدُم ؛ وأما الآخر فلاه زال ولم يمد .
والسرور في الحب شيء غير السرور الذي يعرفه الناس ،
إذ هو في الأول روح تضاعف به الروح ؛ فكل ما سرك
واتمى شمرت أنه اتمى ؛ ولكن ما ينتهي من سرور العاشق

قلت : وهذا ما يفعله كل عاشق لئلا هذه الراقصة إذا لم يكن فيه إلا الحيوان ، فإن بينهما قوة وضعفاً من نوع آخر ، فعه الثمن وبها الحاجة ، وهما في قانون الضرورة ملك وتعليك

قال : وهذا مما يقطع في قاي ، فلو أن الأمة ديناً وشرفاً لما بقى موضع الزوجة فارغاً من رجل ، وإن هذه وأمثالها إنما ينزلن في تلك المواضع الخالية أول ما ينزلن ، فكل بنى فى المعنى دين متروك وشرف مبتذل في الأمة

قلت : فحدثني عنك ما هذا الوجد بها وما هذا الاحتراق فيها ، وأنت قد كنت بين يديها خيالاً محضاً كأنما جمعتهما في حواسك فأخذتها وتركتهما في وقت مكا . وحواسك هذه لا تزال كما هي بل هي قد زادت حدة ، فكما صنعت لك من قرب تصنع لك من بعد

قال : أنا في محضها أحبها كما رأيت بالقدر الذي تقول هي فيه إنك لا تحبني ، إذ كان بيننا آخر اسمه الخلق ؛ ولكنني في غيابها أفقد هذا الميزان الذي يزن المقدار ويمدده . وإذا كنت لم تعلم كيف يصنع العاشق في غيبة المشوق ، فأعلم أن كبرياءه حينئذ لا ترى بازائها ما تقاومه فتتخلى عنه وتخذله ، وفضيلته لا تجد ما تستعملين فيه فتتوارى وتدعه ، وشخصيته لا تجد ما تبرز له فتختفي وتهمله ؛ فما يكون من كل ذلك إلا أن يظهر المسكين وحده بكل ما فيه من الوهن والنقص وحده الشوق ، وهنا ينغمس الحب مما زورت عليه الكبرياء والفضيلة والشخصية فيضرب بمخافته ضربات مؤلة لا تقوم لها القوة ، ويجعل غياب الحبيب كأنه حضوره مستخفياً لرؤية الحقيقة التي كتمت عنه . وكما من عاشقة متكبرة على من تهواه تصدده وتباعدته ، وهي في خلوتها ساجدة على أقدام خياله تمرغ وجهها هنا وهنا على هذه القدم وعلى هذه القدم

ألا إنه لا بد في الحب من تمثيل رواية الامتناع أو الصد أو التهاون أو أى الروايات من مثلها ؛ ولكن ثياب السرح هي دائماً ثياب استمارة ما دام لا يسا في دوره من القصة

ثم وضع المسكين يده على قلبه وقال : آه . إن هذا القلب ينافس الحياة كلها متى أراد أن يشعر صاحبه أنه غضبان من من الناس لا يعرف أحزانه ، ولكن من منهم الذى يعرف

التألم بالحلب ، والتألم بأنه متألم ، فقلت له : ما أراك إلا كأنك تزوجتها وطلقتها فتبعها نفسك

قال : آه . من أنا الآن ؟ وما بال ذلك الخيال الذى نستق إلى الدنيا في أجل أشكالها قد عاد فبعضها ؟ أتدري أن العالم كان في ثم أخذ منى فأنا الآن فضاء فضاء

قلت : أعرف أن كل حبيب هو العالم الشخصى لمحبه قال : ولذلك يمشي الحب المهجور ، أو الفارق ، أو المنتظر وكأنه في أيام خلت ؛ وتراه كأنما يجي إلى الدنيا كل يوم ويرجع قلت : إن من بعض ما يكون به الجلال جمالاً أنه ظالم قاهر عنيف كالملك يستبد ليتحقق من نفاذ أمره ؛ وكأن الجليل لا يتم جماله إلا إذا كان أحياناً غير جميل في المعاملة

قال : ولكن الأمر مع هذه الحبيبة بالتحلاف ؛ فهي تطلبني وأتسكها ، وهي مقبلة لكنها مقبلة على امتناعي ؛ وكأنها طالب يمدو وراء مطلوب يفر ، فلا هذا يقف ولا ذلك يدرك

قلت : فإن هذه هي المشكلة ، ومتى كانت الحبيبة مثلها ، وكان الحب مثلك ، فقد جاءت المقدمة بينهما معقودة من تلقاء نفسها فلا حل لها

قال : كذلك هو ، فهل تعرف في البؤس والمهم كبؤس العاشق الذى لا يتدبر كيف يأخذ حبيبته ، ولكن كيف يتركها ؟ ما هي المسافة بيني وبينها ؟ خطوة ، خطوتان ؟ كلا ، كلا ؛ بل فضائل وفضائل تملأ الدنيا كلها . إن مسافة ما بين الحلال والحرام متراخية ممتدة ذاهبة إلى غير نهاية . وإذا كان الحب الفاسد لا يقبل من الحبيب إلا (نعم) بلا شرط ولا قيد لأنه فاسد ، فالحب الطاهر يقبل (لا) لأنه طاهر ؛ ثم هو لا يرضى (نعم) إلا بشرطها وقيدتها من الأدب والشريفة وكرامة الإنسانية في المرأة والرجل

وإذا لم ينته الحب بالاثم والرديلة ، فقد أثبت أنه حب ؛ وشرفه حينئذ هو سر قوة وعنصر دوامه

أتعرف أن بعض عشاق العرب تمنى لو كان جلاً وكانت حبيبته ناقة ...؟ إنه بهذا يود ألا يكون بينهما العقل والقانون وهذا الحرمان الذى يسمى الشرف ، وألا يكون بينهما إلا قيد غير زتها الذى ينحل من تلقاء نفسه في لحظة ما ، وأن يترك لقوته وتترك هي لضعفها ؛ والقوة والضعف في قانون الطبيعة هما ملك وتعليك واغتصاب وتسليم

سـالـزبورج

مدينة المطر والموسيقى

بقلم سائح متجول

يُطل بنا الكش في ربوع سويسرا الجيلة فنادرنا «تيرينغ» (زيورخ) إلى ألمانيا عن طريق شافهاوزن ، وقصدنا «منشن» (ميونيخ) عاصمة بافاريا عن طريق أوجسبورج وأولم ؛ وفي أثناء الزيارة الجركية عند الحدود الألمانية ، أحصى الموظف المختص ما معنا من صنوف النقد الأجنبي وقيمه وأثبتها بعد الأطلاع عليها في شهادة خاصة ؛ وهذا إجراء لا بد منه لكي يستطيع السائح أن يخرج من ألمانيا بما يحمل من صنوف النقد الأجنبي ، ووصلنا إلى «منشن» عصرآ بعد رحلة ممتعة خلال سهول بافاريا الغنية ، فألفينا المدينة تموج بالرافدين عليها من السياح من مختلف الأقطار ، وألفينا الفنادق غاصة بالزائرين ، وقد رفعت أجورها جميعاً عن الأسعار الرسمية المدونة في سجل الفنادق الألمانية ؛ وقد كانت دورة الألعاب الأولمبية قد بدأت في برلين قبل ذلك بأيام ، فلم نرغب في الذهاب إليها اجتناباً لضجيجها وحياتها الصاخبة ، وآثرنا البقاء في منشن وبافاريا فلم نجد ما كنا ننتشد من الراحة والهدوء

وقد تحدثنا في فصل سابق عن «منشن» ومناظرها وعن أسواق البيرة الضخمة التي اشتهرت بها ، فلا ندو إلى ذلك . وإنما نلاحظ هنا فقط أن الفنادق الألمانية لا ترضى بالأسعار الرسمية التي تقيدت بقبولها والتي يعول عليها السائح ، وهي مدونة في دليل الفنادق الرسمي الذي يقدم اليك ؛ وإن السائح يتكبد في صرف تحاويل السياحة «رجمتر مارك» خسائر لا مبرر لها ، فكل تحويل بخمسين ماركا أو أقل يؤخذ عنه «مارك» ويؤخذ عن المائة مارك ونصف مارك ، وهكذا فإذا ذكرت أنه يؤخذ مثل هذه النسبة أو أكثر عند شراء التحويل ، قالت «العمولة» قد تصل بذلك إلى أربعة أو خمسة في المائة ، وهذا والسائح الذي يريد أن يحول مائتي من النقد الألماني بعد انتهاء زيارته يتكبد في تحويله خسارة لا تقل عن عشرين أو خمسة وعشرين في المائة ، وهذه نسبة غير مقبولة

أسرار أحزانه وحكمتها ؟ أما إنه لو كشف السر لرأينا الأفراح والأحزان عملاً في النفس من أعمال تنازع البقاء ؛ فهذا الناموس يعمل في إيجاد الأصلح والأقوى ، ثم يعمل كذلك لإيجاد الأفضل والأرق . ومن ثم كانت آلام الحب قوية قوية حتى لكأنها في الرجل والمرأة ، تهبي أحد القلبين ليستحق القلب الآخر

آه من هذه اللواعج ؛ إنها ما تكاد تضطرم حتى ترجع النفس وكأنها موقد يشتمل بالجر ، وبذلك يُصهر المعدن الانساني ويُصنع صنعة جديدة ؛ وإلى أن ينصهر ويتصقق ويُصنع ، ماذا يكون للانسان في كل شيء من حبيبه ؟ يكون له في كل شيء روحه الناري

قلت : سائح^(١) . هكذا فليكن الحب . إنها حين تهيج في نفسك الحنين إليها تعطيك ما هو أجل من جمالها وما هو أبعد من جسمها ، إذ تعطيك أقوى الشر وأحسن الحكمة .

قال : وأقوى الألم وأشد اللوعة . يا عجباً ! كأن الحياة لا تقدم في مشق المحبوب إلا عشقها هي ، فإذا وقعت الجفوة ، أوحش البين ، أو اعتري اليأس — قدّم الموت نفسه فكل ذلك شبه الموت

إن الحزن الذي يجيء من قبل المدوي يجيء معه بقوة تحمله وتجدله وتكابر فيه ، ولكن أين ذلك في حزن مبعثه الحبيب ؟ ومن أين القوة إذا ضعف القلب ؟

قلت : لا يصنع الله بك إلا خيراً . فإذا كان غداً وانسلخ النهار من الليل ، جئنا إليها فرأيناها في السرح ، ولعل الأمر يصدر مصدرآ آخر . قال : أرجو

ولم يكذب ينطق بهذه الرجبة حتى مر بنا سبعة رجال يقهقهون ، ثم تلاقينا وجئنا ؛ ولوبلطنا على المسكين حين علم أنها رحلت ؛ لقد أدرك أن الشيطان كان يضحك بسبعة أفواه . . . من قوله : أرجو

ولماذا رحلت ؟ لماذا . . . ؟

وأما هو ؟

سـالزبورج

(تجميع — طنطا)

(١) كلمة الإيهاب هاء، متفالرشى والدح ؛ مثلها (زه) وهذه فارسية